

الاربعمان

قصيدة لافوننس دى لامرتين



أيها العدم ! أيتها الهاوية الصامتة التي خرجت منها ، وسأعود
إليها ، لماذا تركت المرء يفات منك ؟ فقد كنت أنام في أحضانك نوماً
عميقاً ، لا تزعجه أحلام ، ولا تخيفه يقظة ، نوماً هنيئاً وأنا ملتحف
بالنسيان الابدى في أزلية اللانهاية ، دون أن ترى عيني هذا النهار
الزائف الذى أمقته ، وهذه الحياة التي لا أجديها ، غير شقاء يتكسد
فوق شقاء ، وتعاسة تزحم تعاسة .

لقد شاءت الأقدار أن آتى إلى هذا الوجود ، ولو خيبرت لا أثرت
البقاء في غياب العدم ، ولكن أئننى للإنسان أن يؤبه برأيه ، فقد
حكم عليه أن يرى الحياة ، ولا مردّ لحكم القضاء ، فما ذلك الشفق
البادى لأول مرة ؟ وتلك اليقظة المضطربة ، يقظة المخلوق الذى يجهل
نفسه ؛ وهذا القضاء الممتد أمامه ؟ وهذه النظرات العميقة ، التي يلقيها
المرء مسائلاً السماوات ؛ وهذا الافتتان المبهم والامل الذى يملأ
الجوانح ؟ ... كل هذا يبهز بصره ، وهو لم يزل بعد على عتبة
الوجود ، وفي فجر الحياة .

سلاماً ! أيها المقرّ الجديد حيث ألقانى الزمن ، سلاماً أيتها
الكرة الشاهدة لما يخبئ لى المقدور بين طيات الغيب ، سلاماً أيها
المصباح المقدس المغذى للطبيعة ، أيتها الشمس الحبيبة الاولى لكل كائن
حى ، سلاماً أيتها السماء الحاجبة وجه الخالق العظيم ، وأنت أيتها الارض

مَهْمَدُ الْإِنْسَانِ . لَأَنْتَ قَصْرٌ مُسْنِفٌ يَقْضَى فِيهِ الْمَرْءُ حَيَاتَهُ الْفَانِيَةَ ،
ثُمَّ يَنْحَلُّ غُلَافَهُ إِلَى ذَرَآتٍ ، تَنْدَغَمُ فِي ذَرَائِكَ .

سَلَامًا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ، الْآتِ إِلَى هَذَا الْعَالَمِ الْفَانِي عَلَى كَرِّهِ مِنْكَ ،
إِنَّكَ بَخْدِي وَآخِي ، وَأَنْتَ أَيُّهَا الْكَائِنَاتُ ، يَا أَدَاةَ سَعَادَتِي وَهَنَائِي ،
— إِذَا كَانَ كَمِّ هُنَاءٍ وَسَعَادَةٍ فِي هَذَا الْوُجُودِ — سِيرِي فِي الطَّرِيقِ الَّذِي
خَطَّ لَكَ ، غَيْرَ عَابِثَةٍ بِشُعُورِ يَتَأَلَّمُ ، وَأَمَالَ تَحْطِطُ ، فَقَدْ أَضْفَتْ
بِمَجِيئِي إِلَيْكَ ، قَلْبًا إِلَى تِلْكَ الْقُلُوبِ الْكَاسِيَةِ ، وَفَوَادًا إِلَى تِلْكَ الْإِفْقَةِ
الْمَنْسُحَقَةِ .

إِنَّهُ لِحَكْمٍ لَذِيذٍ ، يَسْتَأْثِرُ اللَّبَّ ، وَيَسْتَهْوِي الْمَشَاعِرَ ، وَلَكِنَّهُ :
وَأَسْفَاهُ ! لَمْ يَخْرُجْ عَنْ كَوْنِهِ حَامِلًا فَقَدْ بَدَأَ قَرِيبًا ، وَانْتَهَى وَشِيكَ ، لِأَنَّ
الْأَلَامَ الْمَبْرُوحَةَ فَتَحَتْ لِي قَبْلَ الْإِوَانِ ، أَبْوَابَ الْقَبْرِ ، الَّذِي يَتَطَلَّعُ
إِلَى وَيَدْعُونِي ، فَسَلَامًا يَا يَوْمَ الْآخِرِ ، وَكُنْ لِي أَجْمَلَ يَوْمٍ اكْتَحَلْتَ
بِهِ عَيْنَايَ فِي رِحْلَتِي الْأَرْضِيَّةِ .

لَقَدْ عَشْتُ ؛ لَقَدْ قَطَعْتُ مُفَازَةَ هَذِهِ الْحَيَاةِ ، حَيْثُ تَذْبُلُ دَائِمًا
تَحْتَ قَدَمِي ، كُلَّ زَهْرَةٍ مِنْ أَزَاهِيرِ الْهِنَاءِ ، حَيْثُ دَائِمًا الْإِمْلُ يَخْدَعُ
الْإِمَانِي ، مَظْهَرًا إِلَى السَّعَادَةِ فِي أَفْقٍ خَافِقٍ مُضْطَرِبٍ ، حَيْثُ أَنْفَاسُ الْمَوْتِ
الْحَارِّ تُسَبِّسُ تَحْتَ شَفْتِي كُلَّ الْيَنَابِيعِ الْعَذْبَةِ الْبَارِدَةِ .

وَلَقَدْ أَرَى غَيْرِي يَذُوبُ حَسْرَةً عَلَى مَا وَلَّى مِنْ حَيَاتِهِ ، فَيَلْتَمِسُ
مِنَ الْمَاضِي عَوْدًا ؛ بِأَكْيَا عَلَى فَجْرِ رُبَيْعِهِ الْآفِلِ ، نَادِبًا الْإِوِيَّاتِ الَّتِي
اقْتَطَعَهَا الزَّمَنُ مِنْ حَيَاتِهِ ، كَأَنَّ الْعَيْشَ بِهِجَةً وَصَفَاءً ، لَا تَعَاسَةَ وَشَقَاءَ .
أَمَّا أَنَا ، فَلَوْ أَنَّ الْقَدَرَ بَدَّلَ غِنَى مُنَى النَّفْسِ وَأَمَانِيهَا ، وَحَبَابِي

بالثراء والسؤدد والمجد ، واعطاني كل مفاخر العالم ، ومنحني الحكمة
والجمال والصبا الخالد ، لأعرضت عن المنسج غير آسف ، لاني لا اصبو
الى العيش في دنيا زائلة فانية ، تدبل ذبول وردة عند لفح السموم ، دنيا
كل ما فيها مضطرب مشوش مبسهم ، فالذكرى الخالدة تبلى فيها ويعفو
أثرها ، ويوم الهناء لا تبرغ فيه شمس ؛ ولا يعقبه غد

أيها الالهيب الذي يفترسني ، أيها الروح ، أي شيء أنت ؟ هل
ستحيا بعدى ؟ هل ستتألم اذا تركتك ؟ أيها الضيف الخفي المستتر ،
ماذا سيحل بك بعد هجرى ؛ هل ستنضم الى مشعل النهار وتندغم فيه ؟
اذ قد تكون شرارة ضئيلة من ناره ، أو شعاعاً نائهاً يرتد اليه ، ويعود
الى مصدره ، أو عصارة تقي كوتنها الارض ، أو طيناً نفخت فيه نسمة
الحياة ، أو صلصالاً حياً مفكراً ، . ولكن ماذا أرى ؛ لم ترتعد فرقاً ؟
أتخشى العدم وأنت تعب من الآلام ؛ أتخاف الحياة وترتجف من
الموت ؟

أيها اللغز الخفي ، من يملك ، ويفسر أحاجيك ؟ عبثاً أصغى
الى أصوات حكماء العالم ، فالشك قد تطرق أيضاً الى هذه العقول الجبارة
اذ لم تخرج عن كونها مجبولة من صلصال كغيرها ، فنذ الفى سنة ونيف
افنى سقراط عمره باحثاً منقّباً ، واحتذى حذوه افلاطون ، ولكن عبثاً
وها أنذا اليوم أسعى وأبحث ولن أفوز بضالتي ، وستمضى ألوف
السنين ، وبنو آدم يتخبطون في الظلام الذي نحن فيه ، والحقيقة
الشاردة بمنجاة من قبضة أيدينا ، والله وحده يجمع كل أشعتها المتفرقة
والآن وقد أوشكت أن أغمض عيني عن نور هذه الحياة ، فلا

أجد أقل أمل يواسيني في ساعتي الاخيرة ، فستسير رُوحى دون دليل
ولا ضياء ، من ليل هذه الحياة الداجي ؛ الى ليل القبر الخالك ، حاملة
الى العالم المجهول ، فضائلى دون أمل ، وآلامى دون ثواب .

أَجِبْنِي أَيُّهَا الْقَضَاءُ الظَّالِمُ الْغَشُومُ — اِذَا كَانَ ثَمَّ شَيْءٌ يُسَمَّى قَضَاءً —
اِذْ لِي الْحَقُّ الْمَشْهُومُ اِنْ الْعَنَ شَرَائِعُكَ ، فَبَعْدَ كَدِّ النَّهَارِ وَتَعَبِهِ ، يَحِقُّ
لِلْأَجِيرِ أَنْ يَأْوِيَ إِلَى ظِلَالِ الرَّاحَةِ وَالْهُدُوءِ وَيَقْبِضَ كِرَاءَهُ ، وَلَكِنِّي
عِنْدَمَا أَنْوَأُ تَحْتَ حِمْلِ الْقَدَرِ ، لَا يَكُونُ جِزَائِي بَعْدَ مَشَقَّةِ الْحَيَاةِ وَآلَامِهَا
غَيْرَ الْمَوْتِ !



ولكن بينما فى يعبقِ بِنَسْنَسِ الشُّكِّ والتَّجْدِيفِ ، وَعَيْنَايَ تَنْظُرَانِ
إِلَى قَبْرِى ، وَتَبْكِيَانِ عَلَى نَفْسِي ، اسْتَيْقِظْ فِى الْإِيمَانِ كَأَنَّهُ ذِكْرِي لَطِيفَةً ،
وَالْقَى شِعَاعًا مِنَ الْأَمَلِ عَلَى مُسْتَقْبَلِي الْكَالِحِ ، فَانْعَشْنِي تَحْتَ ظِلِّ الْمَوْتِ
وَالْهَبْ قَوَايَ ، وَاعَادِ إِلَى أَيَّامِي الْعَتِيقَةِ شَبَابَ النَّفْسِ وَرِيْعَانَهَا ، فَصَعِدْتُ
تَحْتَ ضَوْءِ هَذَا الْمِشْعَلِ الْمُقَدَّسِ ، مِنْ مَغْرِبِ حَيَاتِي إِلَى صَبَاحِهَا الضَّاحِكِ ،
وَتَجَلَّيَ أُمَامِي حِظَّ الْإِنْسَانِيَةِ جَمْعًا ، وَتَبَدَّيَ لِنَظَرِي نِظَامَ الْكَوْنِ الْبَدِيعِ
وَتَسْلُسِلَ أَشْيَاءَهُ الْمُنْسَجَمِ ، وَقَرَأْتُ فِي صَفْحَةِ الْمُسْتَقْبَلِ صَوَابَ الْحَاضِرِ ،
فَاغْلَقَ الْأَمَلُ وَرَائِي أَبْوَابَ الصَّدَمِ ، فَاتَحًّا الْأَفْقَ لِرُوحِي النَّشْوَى ،
وَمُفَسِّرًا بِالْمَوْتِ لَغْزَ الْحَيَاةِ

وهذا الإيمان الذكى ينتظرني على حافة القبر ، واأسفاه ! لقد تذكرته :
فقد حام فوق مهدي ، وهو الإرث الخالد لارض المسعاد ، يتركه الآباء
للأبناء من جيل الى جيل ، ويتقبَّله عقلنا منذ يقظته الاولى ، عطية آلهية

كما يتقبل الحياة ونور الشمس ، فهو اللبن المغذّي للروح ، ينسكب من
فم الام ، فيملأ جوانحنا ثقة ، وقلوبنا أملاً . يتغلغل الى الانسان في فصله
الغض ، فيشع نبراسه في الفؤاد ، قبل أن ينفثق الذهن ويعيى العقل ،
والطفل في مهده لا يكاد يتلفظ بمخرج الكلام ، حتى يتم قانونه السامى
فينمو في قلبه ، تحت رعاية الام الحنون ، جنباً الى جنب مع الفضيلة ؛
دون أن يشعر به حتى تتأصل جذوره ، فيورق ويشمر .

حبذا لو أن الحقيقة جعلت لهذه الارض ، فقد عرّضت على
أظارنا منذ طفولتنا ، واتسلت الى نفوسنا من كل جهة ، عن طريق
الحواس ، كما يتسلل الشعاع الطاهر ، من الالهيب السماوى ، فقد أحاطت
بنفوسنا منذ انبثاق جرحها ، وانحدرت الى قلوبنا من مداركنا ، فانضمت
لتذكارنا ، وذابت في أخلاقنا ، كحبة مخضبة يدثرها الشتاء ، فتنبت
في أفئدةنا طويلاً قبل أن تفرخ ، حتى اذا جاوز الانسان صيفه المملوء
اعصاراً برزت أغصانها ، وتفتحت أكمامها ، واينعت أثمارها الالهية للخلود .
أيتها الشمس السرية ، مصباح العالم الآخر ، أعيرى عيني المطفأتين
نورك الرمزي . انبعث من احضان العلى أيها الشعاع المعزى ، أشرق
في قلبى أيها الكوكب المحيى . لهف نفسى ، ليس لي غيرك في ساعاتى
العصبيه ، فهذا العقل الانسانى سراج ضئيل ، يخبو كالحياء على أعتاب القبر ،
فتعال لتحل محله أيها النور السماوى ، تعال لتفيض على جفنى يوماً لا سحب فيه
أعضىنى عن الشمس التى لن أراها فيما بعد وأزى الافق كما ينير كوكب
المساء ، لأحظى بحياة سرمديّة خالده ، برهتها آجال ، وهنت يهتها اجيال .